فضاء الصحراء في الرواية العربية

- الصحراء أنموذجاً -

Desert Space in the Arabic Novel

-The Desert as a Model-

م. أحمد خليفة علي

الجامعة العراقية / كلية الآداب – فسم اللغة العربية

Aa6950993@gMAiL.COM

aKaleefa6@gMAiL.COM

الملخص

تُعد الرّواية فناً من فنون الأدب؛ إذ ينقل إلينا فضاء الأحداث بكل ما فيها من مكونات وجوانب؛ فهي فن يسعى إلى رصد الواقع بطريقة إبداعيّة، وتشكل الصّحراء حيزاً مكانياً جغرافياً له ارتباطه بطبيعة البيئة العربية، وقد ظهر في الرواية العربية وكان له مجموعة من الدلالات التي يجب الوقوف عليها.

الكلمات المفتاحية: ((الفضاء، الحراء، الرواية))

Abstract

The novel is an art of literature; it conveys to us the space of events with all its components and aspects; it is an art that seeks to monitor reality in a creative way, and the desert constitutes a geographical spatial area that is linked to the nature of the Arab environment, and it appeared in the Arab novel and had a set of connotations that must be addressed.

Keywords: ((space, heat, novel))

المقدّمة

تُعد الرّواية فناً من فنون الأدب؛ إذ ينقل إلينا فضاء الأحداث بكل ما فيها من مكونات وجوانب؛ فهي فن يسعى إلى رصد الواقع بطريقة إبداعيّة، ويعدّ الفضاء بنية واسعة تنفتح على مجالات هادفة من حيث تنوع دلالة المصطلح وسعته؛ فينقلنا الفضاء الروائي إلى عالم الكاتب الفكري، ويضعنا أمام صورة للأحداث التي اعتنى بها.

والفضاء هو الحيز المكاني الذي تتمظهر فيه الشّخصيات والأشياء متلبسة بالأحداث تبعا لعوامل متعددة تتصل بالرّؤية الفلسفيّة وبنوعية الجنس الأدبي وبحساسية الكاتب الروائي؛ فتشتمل لفظة الفضاء على المكان والزمان؛ فالنص الأدبي هو رحلة في الزمان والمكان.

إنّ الفضاء الروائي مثل كل فضاء فنّي يُبنى في تجربة جماليّة, فالفضاء عالم تخيلي ينتج من التقاء مخيلة القارئ بالنّصّ الرّوائي لصوغ معنى لهذا الفضاء عن طريق مكوّنات العمل كلّه، ولقد رافق مصطلح «الفضاء الرّوائي» إشكالية متعددة نتجت عنها دراسات ورؤى مختلفة, كلّ منها يبحث في فضاء بعينه؛ فظهر الفضاء النّصّي، والفضاء الجغرافي.

والفضاء رؤيته السّردية, والفضاء معادلاً للمكان؛ فالفضاء الرّوائي هو تعالق الحدث مع شخصياته في مكان ما وزمان ما كعناصر روائية ماثلة بقوة، ولا تتحقق الرواية بغياب أحد هذه العناصر.

وتشكل الصّحراء حيزاً مكانياً جغرافياً له ارتباطه بطبيعة البيئة العربية، وقد ظهر في الرواية العربية وكان له مجموعة من الدلالات التي يجب الوقوف عليها.

- أهمية البحث:

تظهر أهميّة البحث من أهمية دراسة المكان الروائي والتوجه العربي لتوظيفه في الروايات.

- أهداف البحث:

إنّ الأهداف التي يسعى البحث إلى تحقيقها هي:

١. التعريف بالفضاء الروائي وأهميته.
٢. التعريف بالروايات التي اهتمت بتوظيف الصحراء.
٣. تسليط الضوء على بنية الفضاء الصحراوي في الروايات.

- أسئلة البحث:

يطرح البحث مجموعة من الأسئلة منها:

١. ما هو الفضاء الروائي وما أهميته في الرواية؟
٢. كيف تجلى توظيف الفضاء الصحراوي في الروايات العربية؟
٣. ما هي أنواع الأماكن الموظفة في الفضاء الصحراوي؟

- فرضيّات البحث:

يقف البحث على مجموعة من الفرضيات من بينها:

١. يشكل الفضاء الروائي حيزاً واسعاً يجب تسليط الضوء عليه في الرواية العربية.
٢. لقد وظفت مجموعة من الروايات العربية الصحراء واعتمدت على فضاء المكان.
٣. تنوعت الأماكن الصحراوية بين أماكن مغلقة ومفتوحة وموحشة وأليفة.

- منهج البحث:

إنّ المنهج الّذي يعتمده البحث هو المنهج الوصفي التحليلي من خلال تتبع المعطيات وتحليلها واستنباط النتائج منها.

المبحث الأوّل
((مفهوم الفضاء الروائي والتعريف بنشأة الرواية العربية))

١- الفضاء لغة:

جاء في لسان العرب تحت مادة)فضا): الفضاء: المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فُضُوًّا، فهو فاضٍ... وقد فضى المكان وأفضى إذا اتسع... والفضاء الخالي والواسع من الأرض ، وكذا في القاموس فالفضاء مشترك بين الحدث والمكان فهو فاضٍ، وأفضى فلان إلى فلان أي وصل إليه، وأصله أنه صار في فُرْجَته وفضائه وحيزه، والفضاء الساحة وما اتسع من الأرض، يقال أفضيت إذا خرجت إلى الفضاء»[١].

وترد معانٍ ومقولات أخرى وردت مرتبطة بمعنى (المكان)، والتي وجدنا بأنه لا يخرج جميعُها عن معاني الاتساع والفراغ وما إليها من نعوت المكان»[٢] ، وفي تاج العروس ينصرف المعنى إلى الاتساع فالفضاء: الساحة وما اتسع من الأرض أيضاً يستشهد في ذلك بقول الراغب: المكان الواسع وقول شمير: هو ما استوى من الأرض واتسع، وقول أبو علي القالي: الفضاء السعة، ومنه المُفضاة والمفضى: المتسع»[٣].

أما في «المعجم الوسيط» الفضاء هو «ما اتسع من الأرض، والخوالي من الأرض ومن الدار، وما اتسع من الأرض أمامها، وما بين الكواكب والنجوم من مسافات لا يعلمها إلا الله ومحدثه».[٤]

٢- الفضاء اصطلاحاً:

تتعدد تعريفات الفضاء في الرواية وتختلف باختلاف مجالات الباحثين، ويمكن لنا هنا إيراد بعض التعريفات على سبيل المثال لا الحصر منها: تعريف جوليا كريستيفا على أن الفضاء : « يتشكل من خلال العالم القصصي يحمل معه جميع الدلالات الملازمة له، والتي تكون عادة مرتبطة بعصر من العصور حيث تسود ثقافة معينة أو رؤية خاصة للعالم، وهو ما تسميه إيديولوجية» العصر، ولذلك ينبغي للفضاء الروائي أن يدرس دائما ناصيته»[٥].

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب ط ١، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ ص١٥٧.
(٢) الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين تحقيق: مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دون تاريخ. ص٦٣.
(٣) الزبيدي محمد الحسني: تاج العروس ، مج ٨، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٧، ١١٧.
(٤) الزيات أحمد حسن: المعجم الوسيط، دار الدعوة المؤسسة الثقافية للتأليف والنشر،د.ب، ط٢، ١٩٨٩، ص٣٠١.
(٥) لحميداني حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١، ص٥١.

وإذا قارنا ما ذهبت إليه كريستيفا مع نظرة لحمداني بأن « الأبحاث ذاتها المتعلقة بدراسة الفضاء في الحكي تعد حديثة العهد، ومن الجدير بالذكر أنها لم تتطور بعد لتؤلف نظرية متكاملة عن الفضاء الحكائي».[١]

ويعرفه لطيف زيتوني بأنه « عمل أساسي يقوم على بناء النص، ولكن وظيفته ليست تقديم اطار واقعي للأحداث، بل توفير إطار تمثيلي وتصويري لها مهما بدت صلته بالواقع ضعيفة، فقد يستخدم الفضاء لخلق عالم ليالي محض، كما هي الحال في روايات الخيال العلمي أو لإحاطة الحدث بجو لاص، أو لتسليط الضوء عليه، أو لكشف طابع الشخصيات أو لبيان القوى المتصارعة في الحكاية»[٢].

يمكننا أن نخرج بخلاصة مفادها أن هذه المفردة(فضاء) توظف في اللغة الفرنسية أيضًا بمعنى الفراغ والخواء، على غرار ما رأينا في اللغة العربية، وتعبر في الوقت نفسه عن المساحة الممتدة، كما تنزع أيضًا للدلالة على المكان صرفًا، وهذا يجعله أقرب إلى مدلولات المصطلح النقدي الذي سنتناوله في بحثنا، بينما نجد الأمر في اللغة العربية يستدعي تبريرًا يسوِّغ توسع معاني كلمة (فضاء)، للدلالة على مطلق المكان، وبالتالي التوسع للدلالة على المفهوم النقدي الذي سنعرض له، فيما سيأتي من المباحث.

إن الفضاء بمفهومه الحالي حديث حسب المفاهيم التي ترافقه، فالزمن؛ على سبيل المثال أقدم من مفهومي المكان والفضاء، ومن ثمَّ بدأ الكتاب والباحثون بالاشتغال على المكان بوصفه بنية مهمة في النص السردي، حتى بدأت الدراسات الحديثة بالاشتغال على مفهوم الفضاء بوصفه بنية جامعة للزمن والمكان[٣].[٣]

- نشأة الرواية العربية ومكوناتها

لم تقتصر الرواية على بلد دون آخر، أو كاتب دون غيره، فهي فنّ كغيره من الفنون، شاع وانتشر في جميع البلدان، ومنهم العراق الذي ظهرت فيه الرواية في بدايات القرن العشرين، واتسمت بالواقعية، مهتمة بقضايا المجتمع الاجتماعية، كما ظهرت روايات عراقية نقلت الواقع السياسي وتاريخ العراق، وصوّرت الإنسان العراقي في خضم الأحداث السياسية التي عصفت به في تلك الفترة، فاتّسم الأدب الروائي العراقي في تلك الفترة بسمات العنف والقسوة عبر مشاهد الروايات، نتيجة للواقع الذي شهد عنفاً وقسوة في حوادثه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، منطلقين في تصوير ذلك من واقعهم المعاش، وظروفهم

(١) لحميداني، حميد. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص٥٣.
(٢) زيتوني، لطيف: معجم المصطلحات نقد الرواية، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠٢، ص١٢٨.
(٣) شريبط أحمد بنية القضاء في رواية لهذا يوم جديد مجلة الثقافة، ص. ١١٥.

السيئة، فكان إنتاجهم الأدبي صورة صادقة للواقع المعيش.[١]

وقد أخطأ (جلال خالد) في توثيقه لكتاب القاص محمود أحمد السيد، فذكر أن روايته هي سادس رواية كتبت بالعربية، لسببين: الأول: أن محمود السيد أحمد أصدر رواية (في سبيل الزواج) عام ١٩٢١ م، وهذا يعني أنها صدرت قبل روايته التي صدرت عام ١٩٢٧، والثاني: أن جلال خالد لم يذكر أن كتابه هذا رواية، بل ذكر بأنها قصة عراقية موجزة، وذلك في مقدمة الكتاب: «هذه قصة موجزة وهي لإيجازها لا تماثل القصص التحليلية الكبيرة ذوات التفاصيل الدقيقة»، ولو كان قد أصدرها فيما بعد (كرواية عام ١٩٢٨) فقد احتل بها المركز الثالث أيضاً في التسلسل التاريخي للرواية العربية. بعد ذلك تأتي رواية (النخلة والجيران) لغائب طعمة فرمان عام ١٩٦٦م والتي تعدّ الانطلاقة العمليّة للرواية في العراق، أما رواية (الرجع البعيد) للروائي العراقي فؤاد التكرلي، التي صدرت عام ١٩٨١ فقد كانت إحدى أهم وأبرز العلامات في تاريخ الرواية العراقية والعربية[٢].

وبعد أن ترسخت الرواية في تقاليد وثقافة المجتمع العربي، وأصابت قدراً من النضج الفني متجاوزة بذلك مرحلة الغواية الفنية والدهشة الجمالية تأكدت أن زواجها من الفن الروائي الغربي كان زواج غير دائم ، فعملت على التخلص من قبضته وقطع الصلة التي كانت تربطها به وسعت إلى تحقيق منجز روائي عربي أصيل يحمل سمات الهوية العربية، وكان ذلك بإيعاز وتشجيع من تجربة أمريكا اللاتينية، حيث تمكنت الرواية اللاتينية من شق طريقها نحو العالمية بهويتها الحقيقية وخصوصيتها بعيداً عن سياق الرواية الأوربية.

وعليه فقد استحال النص الروائي العربي إلى بناء من القيم الثقافية والاجتماعية والسياسية والحضارية يشيّد بواسطة اللغة، إذ أصبحت تعبير عن حدة الأزمات المصيرية التي تواجه الإنسان العربي «فالرواية الجديدة بنية فنية دالة على الاحتجاج العنيف، الرافض لكل ما هو متداول ومألوف»[٣]، إذ لم تعد المدينة الرحم الفني الخصب الذي أنجب أشكالا روائية متعددة ورغم ارتباطها بالنشأة الأولى للرواية إلا أنها تحولت إلى هامش في إنتاج النص الجديد، خاصة وأن ارتباط الرواية بالمدينة يحيل على تأثر البناء الروائي بالطبقية الاجتماعية والطبقة البرجوازية بصفة خاصة حسب التصوّر الجولدماني «حيث استخدم البعض

(١) هادي، تغريد عبد الخالق، الرواية العراقية بين الامس واليوم، مجلة اكليل للدراسات الانسانية، ٢٠٢١، ص٦٨٧
(٢) المصدر نفسه، ص٦٨٨
(٣) شكري عزيز الماضي أنماط الرواية العربية الجديدة مجلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د. ط سبتمبر ٢٠٠٨، ص ١٦.

البنيوية التكوينية في ربط المدينة بالنص جمالياً، وإن كان ذلك المنهج يحول إلى بناء اجتماعي أكثر منه بناء جمالياً»[1]، وباعتبار المكان أحد أهم العناصر المكونة للرواية التي خضعت للتطور من حيث العرض والبناء وكذا الوظيفة والقيمة، فقد امتثل هو أيضا للتطور الذي خضعت له الرواية، ولم يعد مجرد إطار خلفي لتأطير المادة الحكائية كما كان في السابق؛ حيث كان محدداً جغرافياً تطفو على سطحه ملامح واقعية وتاريخياً، لكنه أصبح في الرواية الحديثة بؤرة إشعاع تشع المادة الحكائية من أركيولوجيا اللغة ومن أنساق المتن الحكائي، وامتزج مع شخصية الإنسان العربي الذي يتلوّع في متاهات الواقع الجديد المؤلم، وأصبح جزء من ذاته المسحوقة التي تنشد العالم الأفضل وأصبح عنصراً متغيراً بتغيّر الإنسان وطبيعة الحياة[2].

المبحث الثّاني
الصحراء بوصفها فضاءً في الرواية العربية

- الروايات التي وظفت الصحراء كحيز مكاني في أحداثها

لقد توجّهت الرواية العربية للبحث عن عوالم روائية شديدة الالتصاق بالثقافة واللغة العربيتين وحولت بعض هوامش الرواية إلى أماكن أساسية مركزية تأخذ دور البطولة في أحيان كثيرة، فاتجهت الأنظار إلى فضاء الصحراء باعتباره بكراً روائياً وفضاءً جديداً يضفي حيوية وروح جديدة على الرواية بعد تسلل الأدباء من الأماكن الضيقة والمألوفة.

ونشير في هذا الصدد إلى أن بواكير التأليف الروائي العربي لم تعرف أعمالاً روائية اتخذت من فضاء الصحراء مسرحاً لأحداثها مثلما أشرنا إلى ذلك، ورغم هذا فقد تسللت إلى بعض الأعمال بأشكال مختلفة «كان أبرزها استعارتها لتصوير بعض النزعات المصطبغة ببعض ما ترسب في نفوس الكتاب العرب من ولع خاص سكبته الرومانسية الغربية على الطبيعة، وعلى المبالغة في الاحتفاء بالأحاسيس والعواطف واستعارة الطبيعة لمداعبة هذه الانفعالات»[3]، فكانت الصحراء الحضن الدافئ الذي فتح ذراعيه لاحتضان هؤلاء المبدعين الذين يسعون إلى تأكيد الصلات القوية التي تربطهم بالطبيعة العذراء والتي كانوا في غفلة عنها ردحا من الزمن، فقد كانوا ينظرون إليها على أنها فضاء عصياً على التشكيل الفني والجمالي «فلم يجرؤ غير الشعراء في محاولة أحكام توثيق الجامها، الذي يأبى على الترويض على المتأخرين أيضا من كتاب

(١) المصدر نفسه، ص ١٢

(٢) شكري عزيز الماضي أنماط الرواية العربية الجديدة مجلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د. ط سبتمبر ٢٠٠٨، ص ١٦.

(٣) صلاح صالح الرواية العربية، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ط١، ١٩٩٦، ص ٢٩

الرواية»[1].

وذلك أن معظم كتاب الرواية في بداياتهم اتجهوا إلى كتابة رواية المدينة –كما أسلفنا الذكر– واتخذوا من مشاكلها وتعقيداتها على جميع الأصعدة مادة دسمة لمتونهم الروائية، والبعض الآخر اختار الريف مكانا لاحتضان أحداث روايته، فالرواية التي سعت إلى الأرياف استأثرتها مشاكل الفلاحين وعلاقتهم بالأرض والإقطاع وما يلقون على يديه من عناء.

وهكذا ترك هذا الفضاء وحيدا تعزف فوق أرضه سمفونية الفراق، غارقاً في الصمت والخشوع، يصلي منفرداً للفراغ والأبدية؛ ولكن الحنين إليها ظل يراود بعض الأدباء طوال حياتهم فزرعوا أشواقهم إليها في نفوس الأجيال اللاحقة من سليلي هذا الفضاء، الذين سعوا إلى لمّ شتاته الممزقة من جديد ومد جسور التواصل معه عن طريق الفن والإبداع، خاصة وأن «التشكيل سبيل الفنان إلى إعادة ترتيب الأوضاع في عالمه النفسي، إلى إعادة بناء العلاقات في العالم الواقعي للوصول إلى واقع نفسي روحي واجتماعي أكثر جمالا وتناغما وانسجاما»[2].

وإن كان هذا التناغم والانسجام نسبي، فالأديب المبدع ابن الصحراء ولد على أديمها وترعرع بين أحضانها وتشرّب ثقافتها أعلم بتفاصيلها وأحداثها وأقرب إليها من المبدع الذي ولد عاش بعيداً عنها، لقد ظلت الصحراء مدة طويلة من الزمن مرتبطة بالجذب والموات بوصفها المكان الأقل ملائمة لحياة معظم الكائنات الحية، إنها الفضاء القلق، الفضاء المستحيل، إنها الطبيعة المعادية لحياة البشر، لذلك ظلت تقبع في دهاليز الصمت والظلام، تسكن عالم الأساطير والخرافات والحكايات العجيبة، باعتبارها المكان الأنسب لاحتضان هذا النوع من الأدب.

ولكن المتأمل في خطاب الرواية العربية الحديثة الخاص بفضاء الصحراء يلاحظ اختلافاً كبيراً عن رواية المدينة، وهذا الاختلاف نابع من خصوصية الصحراء نفسها، فهي سر خفي وطلسم لا يستطيع فك شفراته «ولا يحظى بامتلاك رموزه إلا مجموعة من الأدباء والكتاب، الذين هم سليلو تلك المناطق من العالم العربي الذي شكلت فيه الصحراء جزءً كبيراً ومهما من الجغرافيا العامة. إضافة إلى تميزها بتراث ثقافي ورمزي من نوعية خاصة ترفض كل ثقافة جديدة طارئة تحاول التغيير أو تسعى إليه»[3]، لأن ثقافة

(١) أمينة برانين، فضاء الصحراء في الرواية العربية –المجوس لإبراهيم الكوني أنموذجاً –دار غيداء للنشر والتوزيع، دب، ط١، ٢٠١١، ص ١٦

(٢) حسين خمري فضاء المتخيل منشورات وزارة الثقافة دمشق، ط١، ٢٠٠١، ص ٥٤

(٣) برانين، أمينة، فضاء الصحراء في الرواية العربية، ص ١٧

الصحراء ثقافة قارة في عرف أبنائها وكل فرد يسعى نحو تطويرها أو استبدالها بثقافة وافدة يعد فردا منبوذا مغضوبا عليه من قبل هذا المجتمع فللصحراء قوانينها الخاصة، يؤمن بها أهلها ويخلصون لها ويدينون لها بالطاعة والتبجيل، مثلما للمدينة كذلك أعرافها وقوانينها الخاصة بها، فعند انتقال روائي الصحراء باعتبارهم من رجال «مجتمع الضرورة» إلى «مجتمع الترف» أحسوا بالفرق بين المجتمعين حيث في الصحراء تأتي المفارقة من المكان والطبيعة وفي المدينة تأتي من الإنسان والثقافة»[1]، فالإحساس بالتمايز والتباين هو السمة الطاغية في رواية الصحراء، سواء أكانت من الإبداعات المتعلقة بصحراء شبه الجزيرة العربية أم الإبداعات الخاصة بصحراء المغرب العربي.

لقد استطاعت الرواية العربية بعد أن تخطّت مرحلة المراهقة والتمرين وتطلعت إلى شيء من الاتزان والنضج الفني واتخذت لها مكانة بين الفنون الأدبية الحديثة أن تشق طريقها نحو العالمية، ووجدت في الفضاء الصحراوي ضالتها المنشودة، باعتبارها مكاناً عربياً خالصاً يمنح الرواية العربية خصوصية وهوية، بعيداً عن النمط العربي المتوارث الذي تم احتذاؤه في بداية التأليف الروائي العربي من ناحية الشكل والمضمون، كما أنها «كانت لهم هوية سرديّة رغم تكونها في ظل تطور صناعي سريع، أخذ يفرغ العالم الإنساني المعاصر من القيم الروحية ويقوده إلى الدخول في صراع هو ليس بمنأى عنه ولكنه لا يتمنى أن يكون جزء منه، رغم ذلك لزم عليه أن يتخذ موقع الوسط ليصل بمشكلة عالم مندثر وقضية خاصة إلى جمهور عام من جهة وقراء نموذجين من جهة أخرى، حيث فشلت وسائل أخرى في إيصالها»[2].

إذن لقد تغير مدلول الصحراء العربية الجغرافية واتجهت إليها أنظار الروائيين الذين أرادوا إنجاز رواية بملامح شرقيه عربية أصيلة، فاكتسحت بعنف خطاباتهم الروائية وأصبحت بالنسبة إليهم بمثابة المنجم الذهبي الذي صاغوا منه حلقات جديدة أضافوها إلى سلسلة الإبداع، وتحولت من مكان جغرافي ساذج وبسيط وقاحل إلى فكر عميق غني برؤى وأفكار مختلفة، وقناة يمررون عبرها رسائل مبطنة بإيديولوجيات لا حصر لها، وبانجذابهم إلى هذا الفضاء أرادوا أن يعبروا عن فرحة الابن الضال الذي عاد إلى حضن أمه، ولها، مشتاقاً، طائعاً، وكله شوق وحنين إلى وطن قد همش، وترك جانباً مقصياً لا يسأل عنه أحد، فكانت الصحراء رمز الانبعاث والانتماء والتجدد، وبالمقابل باحت لهم بالكثير من أسرارها الخاصة التي تجلت في متونهم الإبداعية.

(١) العالمي، سعيد، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحرواي في أدب إبراهيم الكويتي المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية – الدار البيضاء – ط١، ٢٠٠٠، ص ١٦

(٢) برانين،أمينة، فضاء الصحراء في الرواية العربية، ص ١٧/١٨

وهكذا توجهت الرواية العربية المعاصرة في عدد من النماذج المتقدمة فنيا وفكريا إلى الصحراء، وكان طليعة نتاج هذا التوجه أن المكان الروائي الصحراوي –خصوصا –تجاوز سكونيته السالبة المعهودة في الأنماط الروائية التقليدية، وانضم إلى العناصر الحركية الفاعلة في تكوين بنية الرواية، ومنح عالمها الداخلي مزيدا من التنامي والحيوية والجماليات الإضافية الخاصة»[1].

تغطي الصحراء مساحة كبيرة من وطننا العربي ورغم قساوة مناخها وطبيعتها القاحلة الجرداء إلا أنها تزخر بموروث ثقافي وفكري وتأثيرها في الأدب العربي ليست بظاهرة حديثة بل هي قديمة قدم الأدب نفسه فالشعر العربي منذ العصر الجاهلي زاخر بالكثير من النصوص التي تفاعل فيها الشعراء مع الصحراء وما تحمله بيئتها من رموز ودلالات.

وفي الأدب العربي المعاصر اتخذ بعض الروائيين العرب (من أمثال عبد الرحمن منيف إبراهيم الكوني رجاء عالم، ،إبراهيم الدرغوثي...) في أعمالهم الروائية من الصحراء موضوعا لها أو مسرحا لأحداثها واستطاع هذا التوجه أن يدفع إلى إعادة النظر في بعض الأفكار التي عدّت الرواية جنس أدبيا لا يمكن له الظهور إلا في المدن ؛إذ ((توجهت الرواية العربية المعاصرة في عدد من النماذج المتقدمة فنيا وفكريا إلى الصحراء وكان طليعة نتائج هذا التوجه أن المكان الروائي الصحراوي خصوصا تجاوز سكونيته السالبة المعهودة في الأنماط الروائية التقليدية وانضم إلى العناصر الحركية الفاعلة في تكوين بنية الرواية ومنح عالمها الداخلي مزيدا من التنامي والحيوية والجماليات الإضافية الخاصة)).[2]

ارتبطت الصحراء بالعالم الأسطوري إذ يتمسك فيه الإنسان الصحراوي بمعتقداته وعاداته وتقاليده ((فكانت الروايات العربية التي اعتمدت الصحراء مكانا كليا أو جزئيا في طليعة الروايات العربية المتقدمة فنيا والأكثر تمثيلا لما يصبو إليه الروائيون والقراء العرب من إيجاد رواية عربية خالصة شكلا ومحتوى واستطاع بعضها أن يحتضن النوى الضرورية لإنجاز خصوصيتها القومية وينضم إلى اللبنات الأولى في تحقيق نظريتها المرجوة))[3]

كما أنها مصدر لا ينضب من الرموز((فالصحراء ليست فضاء ومكانا إيكولوجيا خاليا من كل الدلالات والمفردات والمرتبط بالثقافة والتاريخ وعلم الأجناس، المرتبط بحياة الجماعات البشرية التي تعيش فيه ،بل هي فضاء مليء بالرموز التي تولد رؤى فكرية خاصة بها مما يعطي نصوصا روائية متميزة و

(١) صالح، صلاح، الرواية العربية والصحراء، ص ٧/٨
(٢) صالح:صلاح، الرواية العربية والصحراء،منشورات وزارة الثقافة،دمشق،دط، ١٩٩٦ ،ص٧
(٣) المصدر نفسه،ص ٣١١

متخمة بالدلالات.))[1]

والفضاء الصحراوي له خصوصيته الثقافية والفكرية ((ولا يحظى بامتلاك رموزه إلا مجموعة من الأدباء والكتاب الذين هم سليلو تلك المناطق من العالم العربي الذي شكلت فيه الصحراء جزاءا كبيرا ومهما من الجغرافيا العامة إضافة إلى تميزها بتراث ثقافي ورمزي من نوعية خاصة أنها ترفض كل ثقافة جديدة طارئة تحاول التغيير، أو تسعى إليه))[2]

الصحراء فضاء روائي

- الصحراء بوصفها مكاناً مفتوحاً

وتنفرد الرواية الصحراوية بخصوصية ما تختلف عن رواية المدينة لارتباطها ببيئة جغرافية خاصة وسياقات ثقافية معينة ((فأدب الصحراء يختلف عن أدب المدينة وأدب الريف يمتاز عن أدب المدينة كما يمتاز عن أدب الصحراء بما يملكه كل منها من خصوصيات حيث يبقى حضور البيئة الطبيعة في إنتاج النصوص الأدبية أمرا يرفع من مستوى العمل الفني والإبداعي لأنه يجري بمعزل عن مجتمع المبدع وبيئته (البيئة بمختلف أبعادها الطبيعية والثقافية والاجتماعية والفكرية...))[3]

وبذلك تكون رواية الصحراء ،رواية لها خصوصيتها الفنية والاجتماعية والثقافية صادرة من أبعاد البيئة الصحراوية ،وما تحمله من مرجعية فكرية ورصيد أسطوري وتنوع ثقافي وتراث شعبي أسهم في ظهور إنتاج روائي يحمل مميزات هذه البيئة.

ومن الأماكن المفتوحة التي تم توظيفها في روايات الصحراء:

- القرية
- الواحة
- البركة
- الفلاة
- الصحراء بوصفها مكاناً مغلقاً

(١) تحريشي، محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية،رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم الدرغوثي أنموذجا، ص ٢٩

(٢) برانين، أمينة محمد:فضاء الصحراء في الرواية العربية،دار غيداء للنشر والتوزيع ،عمان ،ط ١, ٢٠١١ , ص ١٧.

(٣) تحريشي، محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية،رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم الدرغوثي . أنموذجا،ص ١٨

وهو المكان الذي يكتسي طابعاً خاصاً من خلال تفاعل الشخصية معه، عبر مقابلته لفضاء أكثر انفتاحاً واتساعاً، وايضاً هو الذي ينتقل فيه الإنسان ويشكله حسب فهمه والشكل الهندسي الذي يروقه ويناسب تطور عصره، وينهض الفضاء المغلق كنقيض للفضاء المفتوح، وقد تلقى الروائيون هذه الأمكنة وجعلوا منها إطاراً لأحداث قصصهم ومتحرك شخصياتهم.

وبالتالي فأن الأماكن المغلقة هي التي ينتقل ويعيش الإنسان وسطها ويشكلها حسب رغبته والعصر الذي يعيش فيه، كالبيت والمسجد، فهو يبينها بشكل هندسي يروق له ويرتاح فيه، وهي عكس المكان المفتوح الذي من الممكن أن يكون طبيعياً، والمكان المغلق «يمثل غالباً الحيز الذي يحوي حدوداً مكانية تعزله عن العالم الخارجي، ويكون محيطه أضيق بكثير بالنسبة للمكان المفتوح فهي الملجأ والحماية التي يطلبها ويأوي إليها الأنسان بعيداً عن ضجة الحياة»[1].

ومن الأماكن المغلقة التي تظهر في روايات الصحراء:

- الخيمة
- البيت
- الصحراء بوصفها مكاناً مألوفاً

تشكل الصحراء مكاناً أليفاً من خلال قدرتها على نقل صورة الانتماء، انتماء الإنسان إلى جذوره الأولى، «وهي تعمل على التاريخ وبعناصره الصغيرة: تاريخ الوعي الفردي السيكولوجي الدقيق، تاريخ الهواجس الداخلية، تاريخ الفئات والمجموعات الصغيرة في المجتمعات، كما تعمل على عناصره الكبيرة تاريخ الشعوب والأعراق والثورات والتحولات الكبرى»[2].

- الصحراء بوصفها مكاناً موحشاً

قد تكون الصحراء في الروايات العربية مكاناً موحشاً عن طريق توظيفها في وصف المخاوف والوحدة وغيرها من الأمور التي تعكس أحزان الإنسان.

الخاتمة

ومما سبق نجد أنّ الصّحراء قد شكلت إلهاماً للكثير من الكتاب العرب، فقاموا بتوظيف المتخيّل في سبيل تصوير هذه الصّحراء ومكانتها في نفوسهم، فالصحراء في الروايات العربية ليست مجرد مكان

(١) المكان في القصة الحزائرية الثورية، اوريدة عبود، ص٥٩.

(٢) () فخري صالح دراسات في الرواية العربية قبل نجيب محفوظ وبعده منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠، ص ٢١.

تصويري وإنما هي تحقق نوعاً من الانتماء الذي يحتاجه الإنسان.

النتائج:

١. تشكل الصحراء نوعاً من الإرث الثقافيّ الّذي يعود فيه الروائي إلى جذوره الأولى محاولاً الاستعانة بها عن خيبة المكان الجديد وغربته.

٢. تنوعت أغراض ذكر الصحراء في الرواية العربية، وقد تم توظيف الفضاء الصحراوي عبر ذكر ما يجول داخل الشخصيات ومساعدتها على التعبير عن مخاوفها وأحزانها.

٣. شكلت الصحراء ملاذاً للروائي العربي لما لها من رموز ترتبط بالتاريخ العربيّ وبإنجازاته.

التوصيات:

١. يوصي الباحث بالتوجه إلى الاهتمام برمزية المكان الروائي ودراسته.

٢. يشكل الفضاء الروائي بحراً واسعاً يوصي البحث بالمتح منه ودراسته وفق الدراسات الحديثة.

٣. يوصي البحث بدراسة البنية الزمكانيّة لتوظيف الصحراء في الروايات العربية.

المصادر والمراجع

١. ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب ج(ف ض ي). ط ١، دار صادر، بيروت،١٤١٤هـ .

٢. أمينة برانين، فضاء الصحراء في الرواية العربية –المجوس لإبراهيم الكوني أنموذجا –دار غيداء للنشر والتوزيع، دب، ط١، ٢٠١١م.

٣. أمينة محمد برانين: فضاء الصحراء في الرواية العربية،دار غيداء للنشر والتوزيع،عمان ،ط ١، ٢٠١١ م.

٤. تحريشي محمد: النص والنصية في الرواية الصحراوية،رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم الدرغوثي أنموذجا.

٥. حسين خمري فضاء المتخيل منشورات وزارة الثقافة دمشق، ط١، ٢٠٠١م.

٦. الزبيدي محمد الحسني: تاج العروس ، ج(ف ض ي) مج ٨، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٧م.

٧. الزيات أحمد حسن: المعجم الوسيط، ج(ف ض ي)دار الدعوة المؤسسة الثقافية للتأليف والنشر،د.ب، ط٢، ١٩٨٩م.

٨. زيتوني، لطيف: معجم المصطلحات نقد الرواية، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠٢م.

٩. سعيد العالمي، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحرواي في أدب إبراهيم الكويتي المركز الثقافي

العربي، المملكة المغربية – الدار البيضاء – ط١، ٢٠٠٠م.
١٠. شريبط أحمد بنية القضاء في رواية لهذا يوم جديد مجلة الثقافة، ص. ١١٥، ١٩٩٧
١١. شكري عزيز الماضي أنماط الرواية العربية الجديدة مجلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د. ط سبتمبر ٢٠٠٨م.
١٢. صلاح صالح الرواية العربية والصحراء، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ط١، ١٩٩٦م.
١٣. فخري صالح دراسات في الرواية العربية قبل نجيب محفوظ وبعده منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م.
١٤. الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين ج(ف ض ي). تحقيق: مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دون تاريخ.
١٥. لحميداني حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١م.

Sources and References

❋ Ibn Manzur, Muhammad bin Makram. Lisan al-Arab, Vol. (F D Y). 1st ed., Dar Sadir, Beirut, 1414 AH.

❋ Amina Branin, Desert Space in the Arabic Novel - The Magi by Ibrahim al-Koni as a Model - Dar Ghaida for Publishing and Distribution, DP, 1st ed., 2011.

❋ Amina Muhammad Branin: Desert Space in the Arabic Novel, Dar Ghaida for Publishing and Distribution, Amman, 1st ed., 2011.

❋ Tahreshi Muhammad: Text and Textuality in the Desert Novel, Behind the Mirage... A Little by Ibrahim al-Darghouthi as a Model.

❋ Hussein Khamri, Space of the Imagination, Publications of the Ministry of Culture, Damascus, 1st ed., 2001.

❋ al-Zubaidi Muhammad al-Hasani: Taj al-Arous, Vol. (F D Y), Vol. 8, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 1st ed., 2007.

❋ Al-Zayat, Ahmed Hassan: Al-Mu'jam Al-Wasit, Vol. (F D Y), Dar Al-Da'wa, Cultural Foundation for Authorship and Publishing, 2nd ed., 1989.

❋ Zaytouni, Latif: Dictionary of Novel Criticism Terms, Lebanon, Lebanon Pub-

lishers Library, 1st ed., 2002.

❋ Saeed Al-Alami, The Epic of the Far Borders, The Desert Imagination in the Literature of Ibrahim Al-Kuwaiti, Arab Cultural Center, Kingdom of Morocco - Casablanca - 1st ed., 2000.

❋ Shuraybat Ahmed, The Structure of the Judiciary in the Novel For This New Day, Al-Thaqafah Magazine, p. 115, 1997

❋ Shukri Aziz Al-Madi, Patterns of the New Arab Novel, Alam Al-Ma'rifah Magazine, National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, 1st ed., September 2008.

❋ Salah Saleh, The Arab Novel and the Desert, Publications of the Ministry of Culture, Damascus, 1st ed., 1996.

❋ Fakhri Saleh, Studies in the Arabic Novel Before and After Naguib Mahfouz, Ikhtilaf Publications, Algeria, 1st ed., 2010.

❋ Al-Farahidi, Al-Khalil bin Ahmed. The Book of the Eye, Vol. (F D Y). Edited by: Mahdi Al-Makhzoumi and Ibrahim Al-Samarrai, Dar and Library of Al-Hilal, no date.

❋ Lahmidani Hamid: The Structure of the Narrative Text from the Perspective of Literary Criticism, Arab Cultural Center, Casablanca, 1st ed., 1991.